ولد خرج للتو من بين أيدي الآلهة وأمه، تفوح منه رائحة الصابون الذي حممته به. يمسك بيد أبيه وينزلان الدرج معا، يغادران البيت. يقول الأب للبواب: «سلام عليكم»، فيتبعه صوت الابن كصدى رفيع: «سلام عليكم»، يمشيان دقائق معدودة في طريقهما إلى البنك. الوالد طويل يرتدي بنطلونا طويلا، يقلل قاصدا من اتساع خطوته، والولد في بنطلون قصير، يوسع خطوته ويشد قامته، لا يغيب عنه كلام أمه وهي تفصل خصلات شعره بفرق دقيق بأسنان المشط وتقول: «كن هادئا، مهذبا ولطيفا، ستلتقي بزملاء أبيك، وربما يراك مدير البنك. أريدهم أن يقولوا هذا الولد أحسن أهله تربيته. شكله جميل وممتاز في سلوكه.»

هذا هو البنك، قال الأب. رفع الولد رأسه، تطلع إلى طوابق المبنى، أقواس النوافذ، شكل البوابات. أربع درجات رخامية، ثم دلفا إلى داخل البنك. شاهد السقف العالي، الثريات البللورية المضاءة بمئات المصابيح الصغيرة المتجاورة، الرخام، السجاجيد، الأعمدة، الدرج، والخزائن والمقابض النحاسية، ورزمات الأوراق النقدية. لم يعد البنك مكانا مسحورا ومبهما ومثيرا يذهب إليه أبوه ويعود منه كل يوم، بل آلة هائلة ملأته رهبة فجلس ساكنا ومنكمشا بجوار أبيه.

كيف أصف مشاعر ذلك الولد، هل أذكر بدقة ما شاهده وأحسّ به، أم أسقط عليه بعضا مما في نفسي الآن، أم تتبدل الصورة بين يديّ وقد مرت بما شعرت به لاحقا وأنا مرتبك وغاضب لأن ما تصورته صرحا يخص أبي، ويخص مصر المطبوع اسمها على أوراقه لم يكن كذلك؟ هل خدعني أبي أم لا أنصفه حين أتصور أنه خدعني، ولم يكن سوى ترس في الآلة، يسعى لكسب رزق عياله، مجرد موظف بياقة بيضاء تعلّم بقدر يسمح له بالعمل في خدمة بنك لا حول له فيه ولا قرار إلا في صغار التفاصيل، ساعٍ من سعاة البنك على درجة وظيفية تتيح له السكن في شقة في وسط البلد بين جيران أسماؤهم دنيز